مسالك الكشف عن مقاصد السور القرءانية

د. رشيد الحمداوي •

من خصائص القرآن الكريم أنه لم يُفرِد كل سورة من سوره لموضوع معين في الغالب[1]، بل كان يجمع في السورة الواحدة موضوعات متنوعة وأغراضا مختلفة، من عقائد وأحكام، ومواعظ وقصص، ووصف وأمثال، وجدل وحكَم، ويتنقّل بينها من غير فصل، خلافا لمناهج التأليف البشرية التي تعتمد التبويب والترتيب. وهو في ذلك كله مُحكَم البنيان، ثابت الأركان: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1).

ومع تنوع مقاصده وكثرة افتنانه وطول كثير من سوره، فإن التاليَ لأي سورة من مطلعها إلى ختامها لا يشعر باضطراب أو خلل، ولا يقف

1 . واحترزت بقولي "الغالب" لاستثناء قصار السور، فإن كثيرا منها يتناول موضوعا واحدا.

• باحث في الدراسات القرآنية

على تناقض أو اختلاف، ولا يجد انقطاعا أو انفصالا، بل يخلص من معنى إلى آخر بسلاسة دون عسر أو اقتسار. وهذا السبْك الفريد أمرٌ يختص به القرآن، ولا يدانيه فيه أي كلام آخر.

القول بوحدة نسق السورة لا يقتضي القول بوحدة موضوع السورة، فقد تتعدد مواضيع السورة الواحدة، إلا أنها تبقى ملتحمة في نسيج واحد متحدة في هدف عام تتجه إليه

أما المتدبر لسور القرآن الكريم فيجد الأمر أعجب من ذلك، إذ يجد موضوعات السورة - مهما تعددت بادئ الرأي - متناسبة متناسقة، تصب كلها في هدف واحد، وتدور كلها حول محور واحد، ويربطها رِباط واحد.

وقد اختلف الدارسون في التعبير عن هذه الخصيصة: فمنهم من سماها نظام السورة[1]، ومنهم من عبر عنها بالوحدة الموضوعية[2] للسورة، ومنهم من عبر عنها أحيانا بالوحدة الطبيعية المعنوية[3]، ومنهم من عبر عنها بالتماسك الفني[4]، ومنهم من سماها بالوحدة البنائية[5]، ومنهم من سماها عمارة السورة[6]. وكنت قد اخترت التعبير عنها - في بحث

1 . وهو عبد الحميد الفراهي في كتابه: **دلائل النظام**: عبد الحميد الفراهي الهندي. المطبعة الحميدية، ط 1، سنة 1388هـ.

2 . منهم رفعت فوزي عبد المطلب في كتابه: **الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية**: دار السلام، القاهرة، ط 1، 1986م .

3 . منهم محمد عبد الله دراز في كتابه **النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن**: دار الثقافة، الدوحة، قطر. ط 1، 1985، 143.

4 . منهم د. محمد حسن باجودة في: تأملات في سورة المائدة، وغيرها من كتبه.

5 . وهو د. طه جابر فياض العلواني في كتابه: "**الوحدة البنائية في القرآن الكريم**".

6 . وهو د. محمود البستاني في كتابه: "**عمارة السورة القرآنية**".

سابق[1] – بوحدة نسَق السورة[2]، وعنيت بها: "**التحام موضوعات السورة القرآنية وتماسك بنائها واتساق معانيها لخدمة مقصود واحد**"، نظرا إلى أن كلمة "النسق" – في رأيي – أدل على التكامل والتناسب من الناحيتين المعنوية والبيانية. وعنيت بالنسَق[3] بناءَ السورة الذي يتسم بالتناسق بين أجزائه، والترابط المعنوي بين آياته.

وآثرت التعبير بوحدة النسق على التعبير بالوحدة الموضوعية دفعا لما قد يتوهم من أن هذه الأخيرة تقضي بأن للسورة موضوعا واحدا[4]، والحقيقة أن معظم السور القرآنية متعددة الموضوعات، ولكنها – مع تعددها – ملتحمةٌ في نسيج واحد، متحدةٌ في هدف عام تتجه إليه؛ وما يعبر عنه بعض الباحثين بأنه موضوع السورة إنما هو هدفها المحوري الذي تدور عليه جميع موضوعاتها.

1 . "وحدة النسق في السور القرآنية وأثر ملاحظتها في التفسير"، منشور بالعدد 22 من مجلة الإحياء، أبريل سنة 2004م.

2 . وقد سبقني إلى هذا المصطلح د. أحمد أبو زيد في كتابه "**التناسب البياني في القرآن**"، منشورات كلية الآداب بالرباط 1992م.

3 . هذه الكلمة وردت في نص لأبي إسحاق الشاطبي حيث يقول عن سورة المؤمنون: "إلا أنه غلب على **نسَقها** ذكر الكفار للنبوة" **الموافقات في أصول الشريعة**: أبو إسحاق الشاطبي، دار الكتب العلمية د. ت، (3 / 312)، وفي كلام محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم (158 و160 و162 و164 و194 و198 و202). وللمولوي أشرف علي التهانوي كتاب بعنوان: "**سبق الغايات في نسَق الآيات**". وحسب د. أحمد بزوي الضاوي في مقال له – منشور في موقع ملتقى أهل التفسير على الأنترنت – بعنوان: "نسَقية السورة القرآنية من خلال تفسير **في ظلال القرآن**: سيد قطب، دار الشروق. ط 9، 1400هـ – 1980م، أنه صاحب هذا المصطلح، وهو في الحقيقة مسبوق إليه.

4 . وممن يوحي كلامه بهذا المعنى الشيخ عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني في مثل قوله: "حول وحدة موضوع السورة القرآنية" (**قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط2، 1989م 42)، وفي تعبيره تسامح.

أما الإمام برهان الدين البقاعي (ت 885هـ)[1]فقد أبدع علما يختص بدراسة السورة من حيث كليتها ونظمها، وسماه علم مقاصد السور[2]، وألّف فيه كتابا نفيسا حاول فيه أن يكشف مقصود كل سورة من سور القرآن الكريم، وسماه: "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور".

وفي هذا البحث أروم التفصيل في مسالك الكشف عن الغرض المحوريِّ الذي تدور عليه السورة القرآنية، وارتأيت أن أسير في التعبير عنه على اصطلاح الإمام البقاعي، وهو: "مقاصد السور".

أ. مميزات مقصود السورة:

قبل البدء في تفصيل مسالك الكشف عن مقاصد السور لا بد للمتدبّر للقرآن الكريم من معرفة الخصائص التي تميز مقصود السورة حتى لا يلتبس عليه بموضوع من موضوعات السورة، وأذكر هنا بضعة مميزات:

. مقصود السورة[3] لا يكون إلا أمرا كليا، لا يتعلق بوقت ولا زمان[4]. فذكر القصص مثلاً لا يكون مقصودا للسورة؛ لأن القصص نفسَها وردت في القرآن

---

1 . هو أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي، مفسر مؤرخ أديب، ولد في سهل البقاع، سكن دمشق، ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها سنة 885هـ، له مصنفات كثيرة، أشهرها " **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي. دار الكتب العلمية، بيروت. 1415هـ - 1995م "، و" **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**: برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين. مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1987م ". تنظر ترجمته في **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، المعروف بابن العماد الحنبلي. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط. دار بن كثير، دمشق. 1406هـ، 7 / 339 – 340، والبدر الطالع: 1 / 19 - 21.

2 . **مصاعد النظر**: 1 / 155.

3 . وهو الذي كان يسميه الفراهي "عمود الكلام" في السورة.

4 . **دلائل النظام**: 62.

لغاية، ولهذا قد ترد في أكثر من موضع، وفي كل موضع تخدم الغرض المحوري للسورة، فسورة الكهف – مثلاً – استغرقت القصصُ جُلَّ آياتها[1]، كقصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين، والإشارة إلى قصة آدم وإبليس، وباقي آيات السورة تعليقٌ أو تعقيب عليها، ولكن ليس مقصود السورة هو إيراد القصص أو تسلية النبي عليه السلام بها، وإنما هو أمر كلي ترتبط به تلك القصص كلها، وتدور حوله آياتها، وهو عند سيد قطب "تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة"[2]، وهو عند محمد الغزالي "التوحيد"[3].

وكذلك الأحكام الخاصة لا تكون مقصودا للسورة، وإنما تجيء مندرجة تحت مقصود كلي، ولذلك لا تجد الأحكام مجردةً في أي سورة، وإنما ترد ممتزجة بموضوعات أخرى، فسورة النور مثلا وإن شغلت الأحكام الفرعية قسطا كبيرا منها إلا أنها اقترنت بوصايا وعظاتٍ تصب في الغرض المحوري للسورة[4].

– مقصود السورة جامع لمطالب السورة، بحيث تكون كلّ آياتها كلاما واحدا[5] من أولها إلى آخرها؛ قال الفراهي: "فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه. فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسرّ، والكلام شرحه وتفصيلُه، وإنتاجه وتعليلُه"[6].

---

1 . فهي تشغل إحدى وسبعين آيةً من أصل عشر ومائة آية.

2 . **في ظلال القرآن**: 4 / 2256.

3 . **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**: محمد الغزالي، دار الشروق ط 1992، 231، ويمكن قول الأمر نفسه عن سورة الشعراء.

4 . ينظر **دلائل النظام**: 62. ويرى الفراهي (96) أن مقصودها "الطاعة في أحكام المعاشرة والتمدن"، فهي تضم تنظيمات لبناء المجتمع الإسلامي على الطهر والعفاف.

5 . ينظر **دلائل النظام**: 73 و75.

6 . المصدر السابق: 73.

ومن ثَمّ فيلزم المتدبرَ للسورة أن يستوفي جميع أجزاء السورة بالنظر، ويستبين الروح التي تربط بين موضوعات السورة كلها، وأن يعبر عنها بما يستوعب مقاصدها المتعددة، وأن لا يكتفي بنظرة عجْلى إلى بعضها، أو تحديد مقصود السورة في موضوع غلب على كثير من آياتها.

مقصود السورة لا يكون إلا كليا، لا يتعلق بوقت ولا زمان، فذكر القصص مثلا يكون مقصودا للسورة، وكذلك الأحكام الخاصة لا تكون مقصودا للسورة، وإنما تجيء مندرجة تحت مقصود كلي

فسورة الحج مثلا يغلب عليها جو السور المكية، فموضوع الإيمان والتوحيد، والإنذار والتخويف، والبعث والجزاء، ومشاهد القيامة وأهوالها، هو البارز في السورة، ولكنها تضمنت إلى جانب ذلك موضوعات تشريعية، كالإذن بالقتال، وأحكام الحج والهدي، والأمر بالجهاد، وغير ذلك. فلا بد أن يكون مقصود السورة شاملا لهذا كله[1].

- مقصود السورة معنى خفي في الغالب، ويحتاج كشفه إلى تدبر السورة، وإجالة النظر في مطالب السورة المتشابهة والمتجاورة الكرّة تلو الكرّة، واستيفاء مجموع آياتها كلها بنظرة شاملة لتقف على الرابط الذي يربط موضوعاتها المتنوعة، ويحقق لها وحدةَ نسقها. وما يظهر بادي الرأي أنه مقصود للسورة قد يكون موضوعا أو طابعا يغلب عليها فحسب.

1 . يرى البقاعي في **مصاعد النظر** (2 / 294) أن مقصودها هو: "الحث على التقوى المعلية عن دركة الاستحقاق الحكيم بالعدل إلى درجة استئهال الإنعام بالفضل..."، أما الفراهي فيرى في دلائل النظام (96) أن مقصودها هو "الجهاد وهلاك القرى".

ب. طبيعة نسق السورة القرآنية وأوجه ارتباطاتها:

مما يلزم المتدبرَ لكشف مقاصد السور القرآنية أن يعرف أوجُه ارتباط الموضوعات المختلفة في السورة بشكل عام، حتى لا يتشتت نظره، ويضيع منه الخيط الذي تنتظم فيه، وقد نبه العلماء المتقدمون على البناء الذي بنيت وفقه كثير من سور القرآن، فها هو العلاّمة أبو إسحاق الشاطبي (ت 790هـ)، يبين أن السورة – وإن تعددت قضاياها – كلام واحد متصل من أوله إلى آخره، ويشير إلى أن من موضوعاتها ما يكون بمنزلة التمهيد للمقصود الأساس، ومنها ما يكون مكمِّلا لبعض جزئياته، ومنها ما يكون بمنزلة الخاتمة التي تؤكد ما تقدمها، ويضرب لذلك مثلاً بأطول سورة في القرآن، فيقول: "فسورة البقرة مثلا كلامٌ واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بُثّ فيها، منها ما هو كالمقدِّمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو المؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب منها، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت، وما أشبه ذلك"[1].

أما أبو الفضل المَشَدّالي البِجائي (ت 865هـ)[2] فقد أومأ إلى أن "الغرض الذي سيقت له السورة" ينبني على مقدمات، منها القريب والبعيد، ويستتبع أحكاما ومعانيَ تلزم عنها، تتشوف النفس إلى معرفتها، وبالتأمل فيها يتوصل المفسر إلى الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن[3].

---

1 . **الموافقات في أصول الأحكام**: 3 / 310 – 311.

2 . محمد بن أبي القاسم المشَدّالي، مفتي بجاية وخطيبها، من مؤلفاته مختصر البيان لابن رشد، والفتاوى. ترجمته في **توشيح الديباج وحلية الابتهاج**: بدر الدين محمد بن يحيى القرافي، تحقيق: أحمد الشتيوي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط 1، 1403هـ – 1983م، 219 – 220، **ومعجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية**: عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة. ط 1، 1414هـ – 1993م، 11 / 259.

3 . **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: 1 / 11.

فالسور المدنية التي تدور آياتها على بيان أركان التقوى، أو تنظيم المجتمع الإسلامي، تنبني على تقرير الأحكام التشريعية، وذكرُها يستدعي معاني أخرى؛ لأن النفس إذا تلقت التكاليف أمراً ونهياً احتاجت إلى ما يدفعها إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولذلك يذكر بعد الأحكام الوعد أو الوعيد، ليكون باعثاً على العمل بها رغبةً في ثواب الله، وخوفا من عقابه، ثم تذكر آيات في توحيد الله وتنزيهه وبيان جلاله وفضله على عباده، لتزداد النفس تعظيما للآمر الناهي سبحانه[1]، وتقبل على طاعته محبةً له وتعظيماً لشأنه.

أما البقاعي فقد رأى من خلال تفسيره للقرآن الكريم وفق قاعدة شيخه المشَذّالي أن السورة لها غرض محوري تدور عليه سائر معانيها، فتساق المقدمات التي تدل عليه، مرتبةً على أبدع وجه، ثم يساق الدليل على ما يحتاج إلى استدلال، وقد يساق ما يشهد لذلك الدليل ويؤكده، ثم يختم بالمعنى الذي ابتدأ به، وتخيل – رحمه الله – السورةَ كدائرة كبرى تشتمل على دوائر صغيرة؛ قال في مقدمة "مصاعد النظر": "فإن كل سورة لها مقصد واحد يُدار عليه أولُها وآخرُها، ويستدلّ عليه فيها، فترتب المقدِّمات الدالةُ عليه على أتقن وجه وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدلّ عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلمّ جرا... فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية...منعطفةً إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكلّ دائرة منها لها شعبةٌ متصلة بما قبلها، وشعبةٌ ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولَها كما لاحم انتهاؤُها ما بعدها، وعانق ابتداؤُها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغُرّ، البديعة النظم، العجيبة الضَّم..."[2].

---

1 . **البرهان**: 1 / 40، **ومعترك الأقران في إعجاز القرآن**: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.ط 1، 1408هـ - 1988م، 1 / 45.

2 . **مصاعد النظر**: 1 / 149.

ومن أمثلة ذلك عنده أنه يرى أن المقصود بالذات من سورة النور هو إثبات غاية النـزاهة والطهارة والشرف لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو يتوقف على إثبات شرف من اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه على قدر منازل قربهم منه واختصاصهم به، وهذا يستلزم تأكيد شرف النبي عليه الصلاة والسلام، وهو ينبني على أن الله يثبت الأمور كلها على غاية الحكمة، وهذا يستلزم بيان تمام قدرة الله وسعة علمه سبحانه، وكل ما تقدم مقدماتٌ استدعاها إثبات المقصود بالسورة[1].

وقد ألف الدكتور محمود البستاني كتابا بعنوان "في عمارة السورة القرآنية"[2]، بحث فيه عن قوانين تحدد الأساس الموضوعي الذي يقوم عليه بناء السورة القرآنية من خلال القرآن الكريم كله. ثم عمد إلى تفسير القرآن وفق المنهج الذي سطره ضمن كتابه: "التفسير البنائي للقرآن الكريم"[3]، وقد تحدث في مقدمته عن أبنية السور القرآنية، وقسمها من حيث الأشكال التي تتخذها إلى أربعة: أفقي، وعمودي، وطولي، وتمهيدي، ثم بين كيف أن مختلف هذه الأنواع تتخذ نمطين: نمطا تكميليا، أو نمطا متموجا.

ج . أوجه الانتقال بين المعاني في السورة القرآنية:

من المهم كذلك أن يتعرف المفسر الذي يريد استكشاف مقصود السورة على أوجه الانتقال بين المعاني الجزئية في السورة، إذ نجد القرآن تارةً يجاور بين الأضداد[4]، كذكر المؤمنين والكافرين، والرحمة والعذاب، وطريق الهداية وطريق

1 . المصدر السابق: 2 / 310، **ونظم الدرر**: 5 / 229.

2 . منشور في موقع الحوزة العلمية بالنجف: www.u-of-islam.net.

3 . مقدمة الكتاب الأول، وشطر الكتاب الثاني، على موقع الحوزة العلمية بالنجف: www.u-of-islam.net.

4 . **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، د ت. طبعة مصورة عن طبعة دار إحياء الكتب العربية سنة 1957م، 1 / 40،

الغواية، ومصير الكافرين ومصير المؤمنين، والظلم والعدل، والصدقة والربا، والإنفاق والبخل...فيكون الثاني منهما قد ذكر على وجه المقابَلة، ولا صلةَ له بالمقصد الأساس للسورة إلا من هذا الوجه. ومن أمثلته قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة:5)، فإن أول السورة كان حديثا عن القرآن الكريم وأنه يهدي المتقين، ثم تحدث عن بعض صفاتهم، ثم انتقل إلى الحديث عن الكفار والمنافقين، ليظهر ما بينهم من تفاوت[1]. ونجده تارةً يسوق بعض الموضوعات مساقَ التنظير، كأن يذكر أمرا، ويستدعي ذلك ذكرَ نظيره، كذكر كراهيَة الصحابة للخروج إلى القتال في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (الأنفال: 5)، تنظيرا لكراهيتهم لفعل النبي عليه السلام في قسمة الغنائم؛ فكأنه أراد أن يقول: قد تَبَين في خروجكم الخيرُ من النصر والظفَر والغنيمة وعزّ الإسلام، فكذا يكون فيما فعله النبي في القسمة[2].

من منهج النظم القرآني أنه قد يُتم طائفة من المعاني، ثم ينتقل إلى طائفة أخرى تقابلها، فيكون حسن التجاور بين الطائفتين مستدعيا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما أو بين الأواخر كذلك

ونجده تارةً يسوقها مساق الاستطراد، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان: 13 – 14)، فقد وقع هذا الكلام في أثناء وصية لقمان على سبيل الاستطراد، تأكيداً لما في وصيته من

ومعترك الأقران: 1 / 45.

1 . **البرهان**: 1 / 49، **ومعترك الأقران**: 1 / 46.

2 . **البرهان**: 1 / 47، **ومعترك الأقران**: 1 / 46.

النهي عن الشرك[1]. ونجد هذا الضرب كثيرا في القصص، فإذا تحدث عن قصة آدم مثلا استطرد لما تستدعيه من أمور[2].

ومن أمثلة تنبه المفسرين إلى تناسب ما خرج عن المقصود الرئيس للسورة مع معانيها صنيعُ أبي جعفر ابن الزبير (ت 708هـ) حين بيَّن أن سورة سبأ تجردت لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه، وأن سورة فاطر تجردت للتعريف بالاختراع والخلق ثم قال: "وما انجرّ في السورتين مما ظاهرُه الخروجُ عن هذيْن الغرضين فملتحمٌ ومُستدعىً بحكم الانجرار بحسب استدعاء مقاصد الآي"[3].

ومن ذلك أيضا الانتقال إلى لوازم المعنى، فكثيرا ما نرى بيان قبح الشرك بعد ذكر نعم الله تعالى على عباده، أو بعد بيان قدرة الله المطلقة[4]، لأن ملاحظة النعم تقتضي شكر المنعِم، واستحضار مظاهر القدرة الإلهية في الخلق تقتضي التوكل عليه والاستعانة به وإفراده بالطاعة سبحانه.

وأحيانا ينتقل السياق من موضوع إلى موضوع عبر ما يسميه البلاغيون: حسن التخلص، ومن أمثلته في سورة الكهف، حيث ذكر قصة "ذي القرنين" وبناءَه للسد، ثم أخبر بمصيره بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ (الكهف: 94)، فتخلَّص منه إلى وصف حالهم بعد ذكر تهدم السدّ لكونه من أشراط الساعة، ثم النفخ في الصور، وذكر الحَشْر، ووصف حال الكفار والمؤمنين[5].

---

1 . **الكشاف**: 3 / 501، وتنظر أمثلة أخرى للاستطراد في الكشاف: 1 / 261 و430 و619، و2 / 93 و107 و607، و 3 / 90 و614، و 4 / 558، و764.

2 . ينظر **معترك الأقران**: 1 / 46، وينظر مثالا له في الكشاف: 2 / 93.

3 . **البرهان في ترتيب سور القرآن**: 287، وينظر كذلك: 259 - 260.

4 . **دلائل النظام**: 58.

5 . **معترك الأقران**: 1 / 46.

وقد نجده يجاور بين الأمور المختلفة غير المتضادة، فيسوق بعضها إلى بعض مساقَ التفريع، أو الاستشهاد، أو الاستنباط، أو التكميل، أو الاحتراس، إلى غير ذلك. وأحيانا يقرن بين معنيين في النظم لاقترانهما في الوقوع التاريخي أو الوضع المكاني استجابةً لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني[1]. ومن منهج النظم القرآني أنه قد يُتمّ طائفة من المعاني، ثم ينتقل إلى طائفة أخرى تقابلها، فيكون حسن التجاور بين الطائفتين مستدعيا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما أو بين الأواخر كذلك، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك[2].

وقد ذكر الفراهي وجوه ربط أخرى، منها:

1 ـ التعليل: إما لإثبات أمر أو دفع شبهة.

2 ـ التفريع ببيان الفروع، ويدخل فيه الشرائع كثيرا.

3 ـ التأصيل ببيان الأصول: وبه ينبه على سر الشرائع والاستدلال البرهاني.

4 ـ التفصيل لِمجمل.

5 ـ التمثيل: إما للتوضيح أو للدليل، ومنه القصص وضرب الأمثال وذكر الوقائع.

6 ـ إيراد المشابه.

7 ـ التنبيه بالوعد والوعيد[3].

واستحضارُ أوجه الانتقال المتقدمة وغيرِها يُنَبه المتدبِّر إلى موقع المعاني الجزئية التي ترد في السورة منَ الغرض المحوري الذي تتفرع عنه موضوعاتها، فلا ينسى مقصود السورة الذي تدور عليه آياتها، ولا يتعب في البحث عن

1 . **النبأ العظيم**: 161.

2 . المصدر السابق: 162.

3 . **دلائل النظام**: 72.

مناسبات بيِّنة بين كل آية وقرينتها، ولا يحتار في اكتشاف محور معنوي يشمل تلك المعاني كلها، فالسورة القرآنية بمنزلة حلقاتٍ مترابطة، مشمولةٍ بحلقة أكبر منها، وهي داخلةٌ فيها، متعلقةٌ بها، ولا يتحتم أن تكون كل حلقةٍ موجودةٍ على مسار خط السورة مرتبطةً بالحلقة التي جاءت قبلها في الترتيب مباشَرةً، بل قد تكون متصلة بالحلقة الكبرى التي تمثل مقصود السورة الرئيس، أو متصلة بحلقة دونها قد سبقت، وليست هي الحلقة المباشرة في تسلسل رصف الحلقات[1]. وقد تهدف السورة إلى إثبات مقصود معين، فتورد دلائل متعددة تثبته من جهات مختلفة، فيكون سياق السورة "كتصوير المشجَّرات" على حد تعبير الفراهي[2].

د . مسالك الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية:

إن تجليةَ بناء السورة القرآنية وإبرازَ اتساق عناصرها وتلاحمِ أجزائها ينطلق من الكشف عن مقصود السورة أو المحور المعنوي الذي تدور عليه سائرُ تفاريع معانيها، ولا مِرْية في أنه أمر دقيق يحتاج إلى إجالة النظر في أجزاء السورة، وإمعان الفكر في تدبر معانيها المتشعبة، مع القدرة الفائقة على النظر الشمولي إلى هيكلها العام، والتمييز بين الأغراض الرئيسة والمعاني الواردة على سبيل الاستطراد والتتميم.

ومن المسالك التي تعين على إبراز الغرض المحوري في السورة:

1. **معرفة الفترة الزمنية التي نزلت فيها معظم آيات السورة:** ومن خلال ذلك يمكن التعرف على هدف السورة العام أو أغراضها الكبرى التي تدور عليها؛ فمن المعلوم أن السور المكية عرضت أسس العقيدة الإسلامية، وقد توخت تقرير أربع قضايا كبرى:

1 . **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، لعبد الرحمان حسن حبنّكة الميداني: 28.

2 . **دلائل النظام**: 57.

1. الإيمان بالله وحده.

2. الإيمان بالبعث بعد الموت.

3. الإيمان بالرسالات السماوية.

4. الدعوة إلى أمهات الأخلاق.

فلا يخلو الأمر من أن يكون من أهدافها هذه القضايا الأربعة مجتمعةً أو منفردة، أو يكون متفرعا عنها أو متعلقا بها.

أما السور المدنية فهي تتوخى بناء المجتمع الإسلامي، وتفصيل التشريع في شؤون الحياة كافة، وحماية الأمة من الأخطار الداخلية والخارجية، ولا تخلو سورة مدنية من هذين المقصدين[1].

ولذلك تميزت بأنها تتناول غالبا بيان الأحكام التشريعية، ومحاورة أهل الكتاب، وفضح سلوك المنافقين.

ومن هنا يمكن للباحث أن يستدل على مقصود السورة من خلال معرفة زمن نزولها، وملاحظة أهداف القسم الذي تنتمي إليه في مجمل آياتها.

ومن أمثلة ذلك أن الشاطبي اعتبر بكون سورة "المؤمنون" مكية، وتوصل بعد استعراض جملة من آياتها إلى أن المقصود منها هو إثباتُ النبوة والردُّ على منكريها. كما ذكر أن سورة الأنعام نزلت في الفترة المكية مبيّنةً لقواعد العقائد وأصول الدين[2]، وأنها جاءت مقررةً للحق، ومنكرةً على من كفر بالله واخترع من تلقاء نفسه ما لا سلطان له عليه وصدَّ عن سبيله[3].

---

1 . ينظر: **مباحث في التفسير الموضوعي**: مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط 1، 1989م، 42 - 43.

2 . المصدر السابق: 3 / 304.

3 . المصدر السابق: 3 / 269.

ومن أمثلة ذلك قول سيد قطب عن سورة إبراهيم: "هذه السورة – سورة إبراهيم – مكية، موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية الغالب: العقيدة في أصولها الكبيرة: الوحي والرسالة، والتوحيد والبعث، والحساب والجزاء. ولكن السياق في السورة يسلك نهجا خاصا بها في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصيلة"[1].

2. **تقسيم السورة إلى أقسام حسب مضمونها:** فالسورة تتكون من جملة من الآيات، وهي سوى المفصَّل متعددة الموضوعات غالبا، ويتحتم على المتدبر ألا يُشتِّت نظره مع تفاريعها وتشعُّباتها، بل عليه أن يقسم السورة إلى مقاطع، بحيث يكون كل مقطع مكوّنا من مجموعة من الآيات التي تدور حول موضوع واحد، أو تتناول نوعا من الأحكام أو توجيهات تشريعية، أو قصة معينة من قصص الرسل والأقوام السابقين؛ بحيث يمثل المقطع وحدة مستقلة عن المقطع الذي سبقه، والمقطع الذي تلاه.

والمقطع ينقسم هو نفسه إلى وحدات صغرى، سماها بعض الباحثين (البنيات)[2]، وهذه (البنيات) قد تكون عبارة عن بضع آيات تعالج قضية واحدة، أو تحوم حول معنى واحد، أو تعرض مشهدا واحدا متكاملا. وتتميز عن المقطع بأنها لا تكتسب قيمتها الدلالية إلا بارتباطها بباقي أجزاء المقطع الذي تنتمي إليه.

فإذا استبانت له مقاطع السورة وأجزاؤها حاول البحث عن الموضوعات التي تشمل جملة من تلك المقاطع، مميزا بين ما هو محوري فيها، وما هو وارد على

---

1 . في ظلال القرآن: 4 / 2077.

2 . د. أحمد بزوي الضاوي: "نسقية السورة القرآنية من خلال تفسير في ظلال القرآن"، منشور في موقع ملتقى أهل التفسير على الأنترنت.

سبيل التكميل والتفريع، لتتحصل لديه أقسام السورة التي تمثل القضايا الكبرى التي تعالجها، ثم يحاول اقتناص الرابط المعنوي الدقيق الذي يجمع بينها، ويتنَزّل منـزلة الجذع الذي تتفرع عنه سائر معاني آيات السورة، وإن لم يوفق في ذلك اكتفى ببيان تلك القضايا والربط بينها في شكل يبين التحام أجزاء السورة.

وويمكن الاستئناس في الوقوف على أجزاء السورة ومقاطعها بما تنبه إليه سعيد حوى في بعض السور القرآنية من تكرر كلمة معينة في مستهل جملة من الآيات في مواضع متفرقة من السورة، حيث اعتبرها علامة لابتداء مقطع جديد، ومن أمثلة ذلك أنه لاحظ في سورة الأنعام تكرر كلمة ﴿وَهُوَ﴾ في بداية مقاطع السورة، مثل: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ (الآية: 6)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ (الآية: 6)، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ (الآية: 142)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ (الآية: 167)"[1].

وقد بين سعيد حوى نفسُه أن هذا الأمر ليس مطردا، وأن العمدة في استكشاف مقاطع السورة هو معاني آياتها، فقال عند كلامه عن سورة الأنعام: "وقد نرى مقاطعَ ليست مبدوءةً بمثل هذا، ولا مختومةً بمثله، وقد نرى مقاطع مبدوءةً بذلك وليست مختومة به، ولقد جرينا على أن نعتمد مثل هذه العلامات حيث وجدت وساعد المعنى في تحديد بداية المقطع أو نهايته، ولكن الشيء الأكثر تحديدا – والذي يجعلنا نحدد به المقطعَ أو القسمَ بشكل دائم بدايةً ونهايةً – هو المعنى"[2].

3. **التمييز بين معاقد السورة والمعاني التي انجر إليها السياق لداع من الدواعي:** فمعاقد السورة هي الموضوعات الرئيسة التي تتناولها السورة[3]،

---

1 . **الأساس في التفسير**: 3 / 1567.

2 . المصدر السابق: 3 / 1567.

3 . سماها الفراهي كذلك "معاطف الكلام" (دلائل النظام: 80).

وبجانبها تكون معانٍ جزئية يستدعي السياق ذكرها لحكمة، فترد على سبيل التتميم أو التفريع أو التنظير أو غيرها من أوجه الانتقال بين المعاني في السورة القرآنية كما تقدم، ولا تكون مقصودةً في السورة أصالةً، ومن ثم على المتدبر أن يتجاوزها ويجعل معاقدَ السورة محطَّ نظره، ويجتهد في استنباط المقصد الذي تفرعت عنه.

معاقد السورة هي الموضوعات الرئيسة التي تتناولها السورة، وبجانبها تكون معان جزئية يستدعي السياق ذكرها لحكمة، فترد على سبيل التتميم أو التفريع أو التنظير أو غيرها من أوجه الانتقال بين المعاني في السورة القرآنية

ومن أمثلة ذلك أن سيد قطب استعرض موضوعاتِ سورة الإسراء المناسبةَ لفترة تنزيلها، ثم بين الغرض المحوري للسورة، وما انجرّ إليه الكلام على سبيل الاستطراد، فقال: "سورة الإسراء مكية، وهي تبدأ بتسبيح الله وتنتهي بحمده؛ وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة؛ إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء، وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان.

ولكن العنصرَ البارزَ في كيان السورة ومحورَ موضوعاتها الأصيلَ هو شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف القوم منه في مكة. وهو القرآن الذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن، وما يهدي إليه، واستقبال القوم له. واستطرد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها. وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي، والتبِعة الجماعية في السلوك العملي في

محيط المجتمع..كل ذلك بعد أن يعذر الله سبحانه إلى الناس، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾"[1].

فإذا وقف المتدبر على "معاقد السورة" التمس اقتناص الرابط المعنوي الذي يربط بينها.

4. **تدبُّر فواتح السور ودلالاتها:** فقد جاءت سور القرآن على سَنَن العرب في كلامهم؛ إذ يجعلون صدور خُطَبهم وقصائدهم دالاً على مرادهم ومُنبِئاً بمقاصدهم، ليكون السَّامع على بصيرة بما يتلقاه، وكذلك جاءت مطالع سور القرآن متضمنةً ما يهدي قارئها وسامعها إلى مقاصدها.

ففاتحة السورة تشير إلى أهم القضايا التي ستعالجها الآيات بعد ذلك، وتأتي خاتمة السورة لتعود للتذكير بها وتأكيدها وترسيخها. ولذلك اعتنى العلماء ببيان مناسبة مطلع السورة للموضوع الذي يغلب على آياتها تحت مسمى براعة الاستهلال[2]، وقد وقف البلاغيون عندها باعتبارها نماذج عاليةٍ في البيان، فالخطيب القزويني (ت 739هـ) – مثلا – يقول: "جميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها، يظهر ذلك بالتأمل فيها مع التدبر لما تقدم من الأصول"[3]. ولا ينبغي في الحقيقة أن نقف عند هذا الحد، بل لا بد من استثمارها في كشف الغرض المحوري الذي تلتقي عليه جميع موضوعات السورة.

ومطلع السورة يختلف قصَراً وطولا حسب اختلاف السور، ويمكن ضبطه بأنه الآية أو الآيات التي انتظم بها معنىً تامٌّ في مُفتتَح السورة. وعلى هذا التحديد

---

1 . في ظلال القرآن: 4 / 2208.

2 . ينظر كتاب "براعة الاستهلال في القصائد والسور" لمحمد بدري عبد الجليل.

3 . الإيضاح في شرح المفتاح: 1 / 395.

يجدُر بالمفسر التمييز بين مطلع السورة ومقدمة السورة، والتنبه إلى أن مطلع السورة قد يباين مقدمتها، فمطلع سورة البقرة مثلا يبدأ من أولها إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: 4)، أما مقدمتها فتبدأ من أوَّلها إلى نهاية قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: 19)، ويبتدئ موضوع السورة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتّقُونَ﴾ (البقرة: 20). ومطلع سورة آل عمران هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿الم . اللهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (آل عمران: 1)، أما مقدمتها فتمتد إلى نهاية قوله جل جلاله: ﴿رَبّنَا إِنّكَ جَامِعُ النّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: 9).

وقد تكون مقدمة السورة منحصرةً في مطلعها، ففي سورة النساء مثلا نجد مطلعها هو الآية الأولى منها، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبَّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتّقُوا اللهَ الّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: 1)،وهي كذلك مقدمتها، والآيات التي تتلوها مندرجة في موضوعات السورة[1].

ومن أمثلة دلالة فواتح السور على غرضها المحوريّ ما بينه عبد الرحمان حسن الميداني في حديثه عن سورة الرعد حيث قال: «**وموضوع سورة الرعد تجده في الآية الأولى منها**: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ الْحَقُّ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد:1)، وتتضمن هذه الآية الإشعار بالكلام على عناصر ثلاثة، وهي:

1 . رسالة الحق.

2 . رسول الصدق.

1 . **العزف على أنوار الذكر**: 104 – 105.

3 . مُرسَل إليهم أكثرُهم لا يؤمنون.

أما الكلام على الرسالة فيستدعي إقامةَ الدليل على أسسها، ومن أجل ذلك جاءت مجموعة من الآيات في السورة لإقامة الأدلة على وجود الله عز وجل وعظيم صفاته.

وأما الكلام على الرسول والمرسَل إليهم فيستدعي بيانَ حال الصراع الذي تمّ بينه وبينهم، ويتضمن ذلك عرض أقوالهم وحججهم في تكذيبهم بالرسول، وكيف عالج الرسول صلى الله عليه وسلم إصلاحهم ضمن التعليمات والبيانات الربانية التي أُنزلت عليه، كما يتضمن عرض تربية الله لرسوله أمام ما لاقى من المكذبين»[1].

ويوضح سعيد حوَّى في تفسيره لسورة يونس المناسبة بين مقدمة السورة ومضمونها فيقول: "تبدأ السورة بآية تدل على مضمون السورة، وهي: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: 1)، فالآية الأولى في السورة تذكر حكمة الكتاب، وذلك يؤكد أنه لا ريب فيه، وأنه هدى يجب أن يهتدي به الناس، **فهذه الآية التي هي مقدمة السورة تشير إلى مضمونها**، كما أنها في محلها تحقّق ما يسمى في علم البلاغة (ببراعة الاستهلال) على أعظمه وأروعه، ولله ولكتابه المثل الأعلى، وتنزه كتابه وكلامه أن يشبه كلام البشر"[2].

وقال ابن عاشور في بيانه لأغراض سورة "المؤمن" التي اشتهرت بسورة غافر: "تضمنت هذه السورةُ أغراضاً من أصول الدعوة إلى الإيمان؛ فابْتُدِئَتْ بما يقتضي تحديَ المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المُقطَّعان في فاتحتهما كما تقدم في أول سورة البقرة. وأُجري على اسم الله تعالى من صفاته

1 . قواعد التدبر الأمثل: 32.

2 . الأساس في التفسير: 5 / 2416.

ما فيه تعريضٌ بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه؛ **فكانت فاتحةُ السور مثلَ ديباجةِ الخُطْبَةِ مشيرةً إلى الغرض من تنزيلِ هذه السورة**"[1].

فاتحة السورة تشير إلى أهم القضايا التي ستعالجها الآيات بعد ذلك، وتأتي خاتمة السورة للتذكير بها وتأكيدها وترسيخها

5. **تدبر خواتيم السورة وملاحظة تناسبها مع مطلعها:** فإننا نجد الكلام في كثير من سور القرآن ينتقل من معنى إلى آخر، ومنه إلى آخر، ثم يعود إلى ما بدأ منه، ولم يكن هذا العود على البدء إلا للدلالة على وجود مقصود رئيس يربط بين الآيات، وهذا ما يسمى بعطف البدء على الختام[2]؛ قال أبو حيان (ت 745هـ) في هذا النوع من التناسب بعد بيانه لمناسبة خاتمة البقرة لفاتحتها: "تتبعت أوائل السور المطوَّلة، فوجدتها يناسبها أواخرُها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء... وذلك من أبدع الفصاحة، حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادةٌ للعرب في كثير من نظمهم، يكون أحدهم آخذاً في شيء، ثم يستطرد منه إلى شيء آخر، ثم إلى آخر، هكذا طويلا، ثم يعود إلى ما كان آخذا فيه أولا..."[3]. وإلى ذلك أشار البقاعي في قوله من كلام متقدم: "فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه، وعاد النظر عليه، على نهج آخر بديع، ومرقى غيرِ الأول منيع..."[4]، وقال الشيخ عبد الحميد الفراهي[5]: "إني

1 . **تفسير التحرير والتنوير**: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م، 24 / 77.

2 . ويعبر عنه ابن عاشور بردّ العجُز على الصدر، ينظر التحرير والتنوير: 15 / 246، و16 / 349، و18 / 136، و21 / 248، و22 / 344، و25 / 322، و28 / 127، و29 / 108، و 368، و30 / 59 و185.

3 . **البحر المحيط**: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق د.زكريا عبد المجيد النوقي، ود.أحمد النجولي الجمل. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ - 2001م، 2 / 378.

4 . **مصاعد النظر**: 1 / 149.

5 . هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد بن عبد المحسن الأنصاري الفراهي، ولد سنة 1864م، في قرية

رأيت في ترتيب كلام الله – وله الحمد على ما أراني – أن الكلام ينجر من أمر إلى أمر، وكله جدير بأن يكون مقصوداً، فيشفي الصدور ويجلو القلوب، ثم يعود إلى البدء فيصير كالحلَقة"[1].

ولذلك اهتم العلماء بتناسب فواتح السور وخواتمها، حتى إن السيوطي (ت 911هـ) ألف في ذلك كتابا سماه "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"[2]. ولكن المتقدمين في كثير من الأحيان لم يربطوها بمقصود السورة، ولم يستعينوا بها في كشف الغرض المحوري.

وقد تنبه محمد عبد الله درَاز (ت 1377هـ)[3] إلى موقع مطلع السورة وخواتمها من بناء السورة فقال: «ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا محددا، يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحيةُ الأولى من السورة الموضوعَ الذي ستعالجه في خطوطها الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتدخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل

"فيرها"، من قرى مديرية "أعظم كره" بشبه القارة الهندية، فحفظ القرآن صغيرا، وبرع في الفارسية، ثم اشتغل بالعربية وعلومها على يد ابن عمته العلامة شبلي النعماني (ت 1914م)، كما أخذ العلم على أبي الحسنات اللَكنوي (ت1887م) وغيره من علماء عصره، ثم عَرّج على تعلم اللغة الإنجليزية وهو ابن عشرين سنة، والتحق بكلية "عليكره" الإسلامية، وحصل على الليسانس في الفلسفة الحديثة من جامعة "الله آباد"، ثم عُين معلما للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بكراتشي، فدرس فيها سنين، وكتب وألّف وقرض الشعر، ثم انقطع إلى تدبر القرآن ودراسته، فقضى فيه بقية حياته حتى توفي سنة 1930م، في مدينة "متهورا".

1 . **دلائل النظام**: 54.

2 . صدر بتحقيق د. محمد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكية، ط 1، مكة المكرمة، 1423هـ – 2002م.

3 . هو علامةٌ مجدد، متخصص في الدراسات القرآنية، ولد سنة 1894م بإحدى قرى مصر لأسرة معروفة بالعلم، حيث كان والده مشرفا على فرع الأزهر بالإسكندرية، وقد تخرّج – المترجَم – من الأزهر عام 1916، ثم عيّن فيه أستاذا للتفسير بكلية أصول الدين، ونال شهادة الدكتوراة بجامعة السربون بفرنسا سنة 1947، بمرتبة الشرف الأولى، له دراسات شتى، أهمها كتابه "النبأ العظيم"، و"دستور الأخلاق في القرآن"، (ت 1970هـ).

كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيرا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة»[1].

ومن الأمثلة الظاهرة على ذلك سورة المؤمنون، فقد افتتحت بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: 1) وجاء في خاتمتها: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون: 118)؛ قال ابن عجيبة الحسني (ت 1224هـ): "بُدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وخُتمت بنفي فلاح الكافرين؛ تحريضاً على الإيمان، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته، من التمسك بالتنزيل، وبما جاء به النبي الجليل، ليقع الفوز بالفلاح الجميل"[2].

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير في بيان مناسبة سورة الأحقاف لسورة محمد: "لمّا انبنت سورة الأحقاف على ما ذُكر من مآل من كذّب وكفر، وافتتحت السورة بإعراضهم، خُتمت بما قد تكرر من تقريعهم وتوبيخهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (الأحقاف: 32)، أي لو اعتبروا بالبداءة لتيسر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرْضهم على النار إلى قوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف: 34)"[3].

ومن أمثلة ذلك عند المفسرين المعاصرين قول سيد قطب في الظلال مبينا الصلة بين مطلع سورة يونس وخاتمتها: "والترابط في سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها، فيجيء في المطلع قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ

1 . **مدخل إلى القرآن الكريم**: محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، د. ت، 119.

2 . **البحر المديد في تفسير الكتاب المجيد**: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط 2، 1423هـ - 2002م، 5 / 43، ومناسبة الفاتحة للختام ذكره غير واحد من المفسرين كالبيضاوي وأبي السعود والآلوسي، ولكن ابن عجيبة هنا أشار إلى الموضوع من طرف خفي.

3 . **البرهان**: 306 - 307، ونظم الدرر: 7 / 149.

لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ (يونس: 1 – 2). ويجيء في الختام: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس: 109)...**فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع، وهو الختام**، كما أنه هو الموضوع المتصلُ الملتحم بين المطلع والختام"[1].

ويذكر الصابوني أن محور سورة الممتحنة يدور حول فكرة "الحب والبغض في الله"، "فقد ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة، وترك الديار والأوطان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء﴾ (الممتحنة: 1) الآيات... وخُتمت السورة بتحذير المؤمنين من موالاة الكفرة المجرمين أعداء الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾(الممتحنة: 13)، وهكذا خُتمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله، ليتناسق الكلام في البدء والختام"[2].

وقد يرد في الخاتمة معنىً سبق ذكره في تضاعيف السورة، فيكون ذلك دليلا على أنه من مقاصد السورة، ففي سورة القصص مثلا نلاحظ أنه قد ورد في القسم الأول منها على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾(القصص: 16)، ونجد في خواتيمها أن الله يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام فيقول: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾(القصص: 86)، "وهذا يشير إلى أن مقاصد السورة الرئيسية التربية على هذا المعنى"[3].

---

1 . في ظلال القرآن: 3 / 1745 وما بعدها، وينظر كذلك الأساس في التفسير: 10 / 6009 – 6010.

2 . صفوة التفاسير: 3 / 337.

3 . الأساس في التفسير: 7 / 4120.

ومن هذه الأمثلة يتبين أن مطلع السورة يأتي ليعين على معرفة هدف السورة والقضايا التي ستعالجها، وتتوزع مقاطع السورة وفق الخطوط التي رسمتها بدايتها، ثم تأتي الخاتمة لتساعد على تثبيت تلك المقاصد في نفس القارئ المتدبر وتذكيره بها بعد أن جال في رحاب السورة ومعانيها المتنوعة.

6. **التأمل في تكرار بعض الآيات أو المعاني في السورة:** فقد تكررت في بعض سور بعينها الآيات مرات عديدة، مثل قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن[1]، وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ في سورة القمر، وقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ في سورة الأعراف، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ في سورة الشعراء[2]. وكان بعض المفسرين المتقدمين يلتمسون حكمة تكرارها[3]، ولكنهم لم يجعلوها سبيلا إلى كشف الغرض المحوري للسورة، والحق أن تكرار الآيات أو المقاطع أو بعض الألفاظ في السورة الواحدة مع تعدد موضوعاتها يؤذن بوجود رابط واحد يجمع بين معانيها المختلفة، ويدل على مقصود واحد تهدف إليه.

فمثلا يلحظ الشيخ الغزالي في سورة المرسلات تكرارَ قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، فقال: "لقد تكررت عشر مرات، أحيانا تجيء بعد نذير إلهي، أو بعد

1 . وردت هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة.

2 . تكررت في مواضع ثمانية منها.

3 . على سبيل المثال ذكر الزمخشري في الكشاف (3 / 126) الحكمة من تذييل قصص سورة الشعراء بالآيتين فقال: "...ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا أو يفتق ذهنا أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ"، وذكر ابن جماعة في **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**: بدر الدين بن جماعة. تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف. دار الوفاء، المنصورة. ط 1، 1410هـ - 1990م، (347) أن المقصود بتكرار: ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ "التنبيهُ على شكر نعمة الله تعالى والتوكيد له".

آية كونية أو بعد مرحلة تاريخية أو بعد نصيحة إنسانية. وقد بدأ إيراد الآية بعد تهديد للمكذبين وتذكير بما لحقهم في الدنيا من نكال، أن ما أصاب الأولين لن يفوت الآخرين!"[1]. وكأنه يومئ إلى أن مقصود السورة هو تحذير المكذبين وترهيب المعاندين[2].

ويلحظ تكرر مادة التقوى في سورة البقرة فيقول: "وخلال المتقين التي أحصتها سورة البقرة كثيرة، فقد تكررت مادة التقوى خلال السورة بضعا وثلاثين مرة، لا تشبهها في ذلك سورة أخرى، والتقوى هي الصفة الجامعة التي طلبت من سائر الأمم في شتى الرسالات"[3]. وكأنه يومئ إلى أن مقصودها بيان معالم التقوى[4].

وقال ابن عاشور في مقدمة تفسيره لسورة مريم: "وقد تكرر في هذه السورة صفَةُ الرحمن ستَّ عشْرةَ مرةً، وذكرُ اسمِ الرحمةَ أربعَ مرات؛ فأنبأ بأن مِنْ مقاصدِها تحقيقَ وصفِ اللّه تعالى بصفةِ الرحمن، والردَّ على المشركين الذين تقعروا بإنكار هذا الوصف كما حكى اللّه تعالى عنهم في قوله في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾(الفرقان: 60)"[5].

---

1 . **نحو تفسير موضوعي**: 495.

2 . بحث بعض المفسرين عن السر في تكرارها، لا سيما بعد آيات لا تتضمن التكذيب، ومن أمثلة ذلك تعليل الفخر الرازي في تفسيره (248/30) ورودَ هذه الآية بعد ذكر جزاء المتقين حيث قال: "اعلم أن هذا هو النوع الثامن من أنواع تهديد الكفار وتعذيبهم، وذلك لأن الخصومة الشديدة والنُّفرة العظيمة كانت في الدنيا قائمة بين الكفار والمؤمنين، فصارت تلك النفرة بحيث إن الموت كان أسهل على الكافر من أن يرى للمؤمن دولة وقوة، فلما بين الله تعالى في السورة اجتماع أنواع العذاب والخزي والنكال على الكفار، بيّن في هذه الآية اجتماع أنواع السعادة والكرامة في حق المؤمن، حتى إن الكافر حال ما يرى نفسه في غاية الذل والهوان والخزي والخسران، ويرى خصمه في نهاية العز والكرامة والرفعة والمنقبة، تتضاعف حسرته وتتزايد غمومه وهمومه، وهذا أيضا من جنس العذاب الروحاني، فلهذا قال في هذه الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾".

3 . **نحو تفسير موضوعي**: 12.

4 . وقد ذكر أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات (3 / 305) أن سورة البقرة "قررت قواعد التقوى".

5 . **التحرير والتنوير**: 16 / 59، وقد ذكر البقاعي في مصاعد النظر (2 / 256) أن مقصودها "بيان اتصافه

وكما يتنبه المفسر إلى الآيات أو المقاطع أو الألفاظ المتكررة، فكذلك ينبغي أن يتنبه إلى المعاني التي تتكرر في غضون السورة، لأن تكرارها دليل على أن تأكيدها وترسيخها في النفوس مُراد، ومن أمثلة ذلك أن البقاعي تنبه إلى أنَّ الدعوة إلى الإنفاق تكررت في مواضع عدة من سورة البقرة، فاستنتج من ذلك أن الإنفاق في سبيل الله "من أصول ما بنيت عليه السورة من صفات المؤمنين"[1]، وأنه "من أعظم مقاصد السورة"[2].

وقال ابن عاشور في مقدمة تفسيره لسورة الرعد: "أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهية، والبعثِ، وإبطالِ أقوال المكذبين؛ فلذلك تكررت حكايةُ أقوالِهم خمسَ مراتٍ موزعةً على السورة بدءاً ونهاية"[3].

7. **الاستئناس باسم السورة أو أسمائها:** وأول من جعل أسماء السور معلما يُهتدَى به إلى معرفة مقصود السورة هو الإمام البقاعي، فقد قال في مطلع تفسيره للفاتحة بعد ما ذكر قاعدة شيخه المشَذَّالي: «وقد ظهر لي - باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل الكتاب - أن اسم كل سورة مترجِمٌ عن مقصودها؛ لأن اسمَ كل شيء تُظهِر المناسبةُ بينه وبين مسمَّاه عنوانَهُ الدالَّ إجمالا على تفصيل ما فيه، وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه الصلاة والسلام عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة

سبحانه بشمول الرحمة بإضافة جميع النعم على جميع خلقه، المستلزِم للدلالة على اتصافه بجميع صفات الكمال...".

1 . **نظم الدرر**: 1 / 399.

2 . المصدر السابق: 1 / 468.

3 . **التحرير والتنوير**: 13 / 76.

والسلام. ومقصودُ كل سورة هادٍ إلى تناسبها، فأذكر المقصود من كل سورة، وأُطَبّق بينه وبين اسمها...»[1].

ومن أمثلة تطبيقه للعلاقة بين مقصود السورة واسمها قوله عن سورة الفتح: "ومقصودها: اسمها الذي يعم فتحَ مكة وما تقدمه من صلح الحديبية وفتح خيبر ونحوهما، وما تفرع عنه من إسلام أهل جزيرة العرب، وقتال أهل الرِّدة، وفتوح جميع البلاد، الذي يجمعه كله إظهار هذا الدين على الدين كله"[2]. وقوله عن سورة الملك: "ومقصودها: الخضوع للّهِ، لاتصافه بكمال الملك، الدال عليه تمام القدرة، الدال عليه قطعاً إحكامُ المكوَّنات، الدال عليه تمام العلم، الدال عليه - مع إحكام المصنوعات - علمُ ما في الصدور، لينتج ذلك العلم بتحتم البعث لدِيْنونة العباد على ما هم عليه من الصلاح والفساد كما هي عادةُ الملوك، لتكمل الحكمة، وتتم النعمة. واسمها "الملك" واضح في ذلك؛ لأن الملك محل الخضوع، من كل ما يرى الملك"[3].

وهذا المسلك طريقٌ بديع في استكشاف مقصود السورة، غير أن تطبيق البقاعي له لا يخلو في بعض السور من شيء من التكلف[4]، فهو في كثير من الأحيان لا يستهدي باسم السورة لمعرفة مقصودها، وإنما يلتمس وجه المناسبة بينهما بعد أن يتوصل إليه.

ومن جهة أخرى تتنوع أسماء السور إلى عدة أنواع: منها ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام، كالبقرة وآل عمران، والنساء، ومنها ما اشتهر عن السلف ولا يوجد له اسم آخر، كالعنكبوت وسبأ والصافات، فيكون اتفاقهم على

1 . نظم الدرر: 1 / 11.

2 . المصدر السابق: 2 / 492.

3 . المصدر السابق: 3 / 330.

4 . ينظر مثلا كلامه عن سورة آل عمران في مصاعد النظر: 2 / 68.

اسمها دليلا على أنه توقيفي من النبي عليه السلام، ومنها أسماء وردت عن بعض الصحابة أو التابعين، بحيث نجد لبعض السور أكثر من اسم، والظاهر من صنيعهم أنهم كانوا يراعون مضامين السور في تسميتها[1].

ولكن طائفة من أسماء السور المشهورة ليست كالعناوين التي تدل على مضمون مسماها بشكل إجمالي، وإنما جرت على عادة العرب في أخذ الأسماء. وقد بين ذلك أبو جعفر بن الزبير حين قال: «والعرب تراعي في الكثير من المسمَّيات أخذ أسمائها من نادر أو مُستغرَب يكون في المسمَّى من خلْق أو صفةٍ تخصه، أو تكون فيه أحكمَ أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى. ويسمون الجملةَ من الكلام والقصيدةَ الطويلة من الشِّعر بما هو أشهر فيها، أو بمطلعها إلى أشباه هذا، وعلى هذا جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لغريب قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة في أمرها، وتسمية سورة الأعراف بالأعراف لمّا لم يَرِدْ ذكرُ الأعراف في غيرها، وتسمية سورة النساء بهذا الاسم لِما تردد فيها وكثر من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها»[2]. ولذلك فإن الأسماء المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الأسماء التي دل اتفاق الصحابة عليها أنها التوقيفية لا بد أن تكون منطوية على معانٍ ترمي إليها، ولكن لا تستلزم بالضرورة أن تؤذن بمقصود السورة العام، بل قد يكون للمعنى الذي تدل عليه نوعُ تعلق به فحسب، وقد يدل عليه بوجه من الوجوه، ولا تظهر دلالته عليه بجلاء، إلا إذا أجال المتدبر نظره في السورة وضمّ إلى دلالة الاسم ما توصل إليه عن طريق المسالك السالفة الذكر.

---

1 . **الإتقان**:1 / 192 – 193، من تقشقشت قروحه، إذا تقشرت للبُرْء.

2 . **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**: أبو جعفر بن الزبير، تحقيق: سعد الفلاح، دار الغرب الإسلامي. ط 1. 1983م،1 / 174- 175.

ومن أمثلة الاستناد إلى أسماء السور التوقيفية ما قام به د. مصطفى مسلم في دراسته لسورة الكهف كنموذج على التفسير الإجمالي الذي يلحظ الغرض المحوري للسورة[1]، فقد لاحظ أن هذه السورة انفردت بأربع قصص لم تتكرر في سور أخرى، وهي قصة أهل الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى عليه السلام مع الخَضِر، وقصة ذي القرنين، وقد جاءت تسمية هذه السورة بالكهف في أحاديث مرفوعة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حفِظ عشرَ آياتٍ مِن أوّل سورة الكهف عُصِم من الدّجّال»[2]. وحين تأمل في القصص الأربعة وجدها تشترك في بيان أسباب الفتن الكبرى في الحياة الدنيا، وهي: فتنة السلطان، والمال، والعلم، والأسباب المادية. ومن ثم استخلص أن السورة جاءت لتلقي أضواء كاشفةً على هذه الفتن، وتكشف حقيقتها، وتظهر حقارة شأنها، وتعطي المؤمن الموازين التي يميز بها بين الحق والأباطيل، وبذلك تكون قراءة هذه السورة عصمةً من جميع الفتن، وفي مقدمتها فتنة المسيح الدجال.

ثم تأمل في علة تسمية السورة باسم الكهف واستنبط وجهَ المناسبةِ بين اسم السورة وموضوعاتها، فرأى أن اسم الكهف قد اختير نظرا إلى المكان الذي لجأ إليه الفتية لحمايتهم من الفتنة: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ (الكهف: 16)، ومن تدبر موضوعات السورة واعتبر بقصصها كانت له كالكهف الحصين الذي يؤوي من جميع الفتن، وإذا كان الكهف الذي لجأ إليه الفتية قد اكتنفته رعاية الله، فحفظهم الله به من بطش المشركين؛ فإن الكهف الذي يأوي إليه قارئ هذه

1 . وهو يعتبره أحد أنواع التفسير الموضوعي، ولا مُشاحّة في الاصطلاح.

2 . **صحيح مسلم**: الإمام مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1992م، 6 / 77 رقم 1833.

السورة كهف معنوي من عنايةِ اللّه سبحانه وحفظِه وسترِه، فلا تؤثر فيه الفتنُ المعروضةُ على قلبه ولو كانت مِثل قِطَعِ الليل المظلم[1].

أسماء السور القرآنية لا بد أن تكون منطوية على معانٍ ترمي إليها، ولكن لا تستلزم بالضرورة أن تؤذن بمقصود السورة العام.

وقد يكون أحد أسماء السورة أدلَّ على مقصودها من اسمها المشهور المكتوب في المصاحف، فسورة المائدة اشتهرت بهذا الاسم[2]، ومن أسمائها أيضا: سورة العقود، وهو يدل على مقصودها بجلاء، وهو "الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق، ورحمة الخلائق"[3]. وسورة النحل اشتهرت بهذا الاسم، وروي عن قتادة أنها تسمى سورة النِعَم؛ بسبب ما عدد الله فيها من النعم على عباده[4]، وهو يدل على أن مقصودها هو التذكير بأدلة وحدانية الله ومظاهر قدرته وعظمة فضله على عباده[5].

ومن أمثلة دلالة اسم من أسماء السورة الواردة عن الصحابة قول سيد قطب في تفسيره لسورة "محمد": "اسمها سورة القتال، وهو اسم حقيقي لها، فالقتال هو موضوعها، والقتال هو العنصر البارز فيها، والقتال في صورها وظلالها، والقتال في جرسها وإيقاعها"، ثم راح يستعرض آيات السورة وارتباطها بموضوع الجهاد في سبيل الله[6].

---

1 . **مباحث في التفسير الموضوعي**: 174.

2 . وردت تسميتها بالمائدة في كلام عبد الله بن عمرو بن العاص، وجرير بن عبد الله البجلي، وأم المؤمنين عائشة، وأسماء بنت يزيد، وغيرهم (ينظر مسند أحمد: رقم6643، و19221، و25547، و27575).

3 . **مصاعد النظر**: 2 / 106.

4 . **المحرر الوجيز**: 3 / 377.

5 . ينظر **التفسير الواضح**: الدكتور محمد محمود حجازي. دار الجيل الجديد. د.ت: 2 / 296، وصفوة التفاسير: 2 / 102، والتفسير الوسيط: 2 / 1277.

6 . **في ظلال القرآن**: 6 / 3278.

وثمة سور لا سيما من المفصل اسمها واضح في الدلالة على موضوعها كسورة الطلاق وسورة المنافقون وغيرها، ويقول الصابوني في تقديم سورة المنافقون: "والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة، هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح، الكاشف لأستار النفاق: "سورة المنافقون"، لبيان عظيم خطرهم، وجسيم ضررهم"[1].

هذا ما وفقني الله إليه في تعيين مسالك الكشف عن مقصود السور في القرآن الكريم، من خلال تتبع صنيع العلماء والمفسرين. ويبقى أن أنبه – في ختام هذا البحث – على أن ما توصل إليه المتأمل بعد طول التدبر في السورة، واستيفاء طرق كشف غرضها المحوري أمرٌ اجتهاديٌّ لا يمكن القطع به، ولكل باحث أن يتدبر السور القرآنية ويتفكر في تناسق آياتها وترابطها، ويستخرج مقاصدها الكلية ما دام قد استفرغ وسعه، واستدل لما أفضى إليه تدبره، ولا ضير في الاختلاف في هذا، فذلك في نفسه مظهر من مظاهر ثراء القرآن وكرم عطائه.

1 . **صفوة التفاسير**: 3 / 354، وينظر "في ظلال القرآن".